﴿ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ ﴾

(سورة الشورى)

إن القرآن هو وحى منزل من عند الله ، يُعرِّف المؤمنين النور إلى الهداية وتكاليف الحق ، ويهدى من اختار الهدى ، وإنك يا محمد لتدعو بهذا القرآن إلى صراط مستقيم . إن كل « ما كنت » فى القرآن الكريم هى دليل على أن ما أخبرك به جبريل رسولا من عند الله إليك ، وحاملا للوحى من الله هو الحق ؛ فتعلمه أنت يا محمد بطريقة خاصة وعلى نهج مخصوص ، رغم أنك لم تقرأ كتابا ولم تجلس إلى معلم . وما تخبرهم به من آيات هى موافقة لما معهم ، وكان من الواجب أن يقولوا إن الذى علمك هذا هو الله سبحانه وتعالى ، وكان يجب أن يقروا ويشهدوا بأنك من المرسلين . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ۝٢٥٣ ﴾

إن الحق سبحانه وتعالى يشير إلى الرسل بقوله : « تلك الرسل » و« الرسل » هى جمع لمفرد هو « رسول » . والرسول هو المكلف بالرسالة . والرسالة هى الجملة من الكلام التى تحمل معنى إلى هدف . ومادام الرسل جماعة فلماذا لم يقل الحق « هؤلاء

الرسل » وقال « تلك الرسل » ؟ ذلك ليدلك القرآن الكريم على أن الرسل مهما اختلفوا فهم مرسلون من قبل إله واحد وبمنهج واحد . وكما عرفنا من قبل أن الإشارة بـ « تلك » هي إشارة لأمر بعيد . فعندما نشير إلى شيء قريب فإننا نقول : « ذا » ، وعندما نستخدم صيغة الإشارة مع الخطاب نقول : « ذاك » . وعندما نشير إلى مؤنث فنقول : « تِ » وعندما نشير إلى خطاب مؤنث نقول : « تيك » . و« اللام » كما عرفنا هنا للبعد أو للمنزلة العالية .

إذن فقوله الحق : « تلك الرسل » هو إشارة إلى الرسل الذين يَعْلَمُهُم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، أو الرسل الذين تقدموا في السياق القرآني . والسياق القرآني الذي تقدم تحدث عن موسى عليه السلام ، وعن عيسى عليه السلام ، وتكلم السياق عن أولي العزم من الرسل .

إن أردت الترتيب القرآني هنا ، فهو يشير إلى الذي تقدم في هذه السورة ، وإن أردت ترتيب النزول تكون الإشارة إلى من عَلِمَهُ الرسول من الرسل السابقين ، والمناسبة هنا أن الحق قد ختم الآية السابقة بقوله هناك : « وإنك لمن المرسلين » ، ولما كانت « وإنك لمن المرسلين » تفيد بعضيته صلى الله عليه وسلم لكلية عامة ، كأنه يقول : إياكم أن تظنوا أنهم ماداموا قد اتفقوا في أنهم مرسلون أو أنهم رسل الله ، أنهم أيضا متساوون في المنزلة، لا ، بل كل واحد منهم له منزلته العامة في الفضليّة والخاصة في التفضيل . إنهم جميعا رسل من عند الله ، ولكن الحق يعطي كل واحد منهم منزلة خاصة في التفضيل .

فلما كان قول الله : « وإنك لمن المرسلين » يؤكد لنا أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين الرسل فلا تأخذ هذا الأمر على أساس أن كل الرسل متساوون في المكانة ، وتقول إنهم متماثلون في الفضل . لا . إن الله قد فضل بعضهم على بعض .

وما هو التفضيل ؟

إن التفضيل هو أن تأتي للغير وتعطيه ميزة ، وعندما تعطى له مزية عمن سواه قد

يقول لك إنسان ما « هذه محاباة » ، لذلك نقول لمن يقول ذلك : الزم الدقة ، ولتعرف أن التفضيل هو إيثار الغير بمزية بدافع الحكمة ، أما المحاباة فهى إيثار الغير بمزية بدافع الهوى والشهوة ، فمثلا إذا أردنا أن نختار أحداً من الناس لمنصب كبير ، فنحن نختار عددا من الشخصيات التى يمكن أن تنطبق عليهم المواصفات ونقول : « هذا يصلح ، وهذا يصلح ، وهذا يصلح » و« هذا فيه ميزات عن ذاك » وهكذا ، فإن نظرنا إليهم وقيمناهم بدافع الحكمة والكفاءة فهذا هو التفضيل ، ولكن إن اخترنا واحداً لأنه قريب أو صهر أو غير ذلك فهذا هو الهوى والمحاباة .

إن التفضيل هو أن تؤثر وتعطى مزية ولكن لحكمة ، وأما المحاباة فهى أن تؤثر وتعطى مزية ، ولكن لهوى فى نفسك . فمثلا هب أنك اشتريت قاربا بخاريا وركبته أنت وابنك الصغير ، ومعك سائق القارب البخارى ، وأراد ابنك الصغير أن يسوق القارب البخارى ، وجلس مكان السائق وأخذ يسوق . ولكن جاءت أمواج عالية واضطرب البحر فنهضت أنت مسرعا وأخذت الولد وأمرت السائق أن يتولى القيادة ، وهنا قد يصرخ الولد ، فهل هذه محاباة منك للسائق؟ لا ، فلو كانت محاباة لكانت لابنك ، لكنك أنت قد آثرت السائق لحكمة تعرفها وهى أنه أعلم بالقيادة من الولد الصغير . إذن إذا نظرت إلى حيثية الإيثار وحيثية التمييز لحكمة فهذا هو التفضيل ، ولكن فى المحاباة يكون الهوى هو الحاكم .

وكل أعمال الحق سبحانه وتعالى تصدر عن حكمة ؛ لأنه سبحانه ليس له هوى ولا شهوة ، فكلنا جميعا بالنسبة إليه سواء . إذن هو سبحانه حين يعطى مزية أو يعطى خيرا أو يعطى فضلية ، يكون القصد فيها إلى حكمة ما .

وحينما قال الحق : « وإنك لمن المرسلين » جاء بعدها بالقول الكريم : « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض » وأعطانا نماذج التفضيل فقال : « منهم من كلم الله » . وساعة تسمع « منهم من كلم الله » يأتى فى الذهن مباشرة موسى عليه السلام ، وإلا فالله جل وعلا قد كلم الملائكة .

وبعد ذلك يقول الحق : « ورفع بعضهم درجات » . ثم قال : « وآتينا عيسى ابن

مريم البينات » إنه سبحانه قد حدد أولا موسى عليه السلام بالوصف الغالب فقال : « كلم الله » وكذلك حدد سيدنا عيسى عليه السلام بأنه قد وهبه الآيات البينات . وبين موسى عليه السلام وعيسى عليه السلام قال الحق « ورفع بعضهم درجات » والخطاب فى الآيات لمحمد عليه الصلاة والسلام . إذن ففيه كلام عن الغير لمخاطب هو محمد صلى الله عليه وسلم .

وساعة يأتى التشخيص بالاسم أو بالوصف الغالب ، فقد حدد المراد بالقضية ، ولكن ساعة أن يأتى بالوصف ويترك لفطنة السامع أن يرد الوصف إلى صاحبه فكأنه من المفهوم أنه لا ينطبق قوله : « ورفعنا بعضهم درجات » بحق إلا على محمد صلى الله عليه وسلم وحده . وجاء بها سبحانه فى الوسط بين موسى عليه السلام وعيسى عليه السلام ، مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يأت فى الوسط ، وإنما جاء آخر الأنبياء ، ولكنك تجد أن منهجه صلى الله عليه وسلم هو الوسط . فاليهودية قد أسرفت فى المادية بلا روحانية ، والنصرانية قد أسرفت فى الروحانية بلا مادية ، والعالم يحتاج إلى وسطية بين المادية والروحية ، فجاء محمد صلى الله عليه وسلم ، فكأن محمداً صلى الله عليه وسلم قطب الميزان فى قضية الوجود .

وإذا أردنا أن نعرف مناطات التفضيل ، فإننا نجد رسولا يرسله الله إلى قريته مثل سيدنا لوط مثلا ، وهناك رسول محدود الرسالة أو عمر رسالته محدود ، ولكِنْ هناك رسول واحد قيل له : أنت مرسل للإنس والجن ، ولكل من يوجد من الإنس والجن إلى أن تقوم الساعة إنه هو محمد صلى الله عليه وسلم .

فإذا كان التفضيل هو مجال العمل فهو لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وإذا نظرنا إلى المعجزات التى أنزلها الله لرسله ليثبتوا للناس صدق بلاغهم عن ربهم ، نجد أن كل المعجزات قد جاءت معجزات كونية ، أى معجزات مادية حسية الذى يراها يؤمن بها ، فالذى رأى عصا موسى وهى تضرب البحر فانفلق ، هذه معجزة مادية آمن بها قوم موسى ، والذى رأى عيسى عليه السلام يبرىء الأكمه والأبرص فقد شهد المعجزة المادية وآمن بها ، ولكن هل لهذه المعجزات الآن وجود غير الخبر عنها ؟ لا ليس لها وجود .

لكنْ محمد صلى الله عليه وسلم حينما يشاء الله أن يأتيه بالمعجزة لا يأتى له بمعجزة من جنس المحسات[1] التى تحدث مرة وتنتهى ، إنه سبحانه قد بعث محمداً صلى الله عليه وسلم إلى أن تقوم الساعة ، فرسالته غير محدودة ، ولابد أن تكون معجزته صلى الله عليه وسلم غير محسة وإنما تكون معقولة ؛ لأن العقل هو القدر المشترك عند الجميع ، لذلك كانت معجزته القرآن . ويستطيع كل واحد الآن أن يقول : محمد رسول الله وتلك معجزته .

إن معجزة رسولنا صلى الله عليه وسلم هى واقع محسوس . وفى مناط التطبيق للمنهج نجد أن الرسل ما جاءوا ليشرعوا ، إنما كانوا ينقلون الأحكام عن الله ، وليس لهم أن يشرعوا ، أما الرسول محمد صلى الله عليه وسلم فهو الرسول الوحيد الذى قال الله له :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

فهو صلى الله عليه وسلم قد اختصه الله بالتشريع أيضا ، أليست هذه مزية ؟ إن المراد من المنهج السماوى هو وضع القوانين التى تحكم حركة الحياة فى الخلافة فى الأرض ، وتلك القوانين نوعان : نوع جاء من الله ، وفى هذا نجد أن كل الرسل فيه سواء ، ولكنْ هناك نوع ثانٍ من القوانين فوض الله فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يضع من التشريع ليلائم ما يرى ، وهذا تفضيل للرسول صلى الله عليه وسلم .

إذن حين يقول الله تعالى : « ورفع بعضهم درجات » فهذا لا ينطبق إلا على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . وهذه أكثر من التصريح بالاسم . وأضرب هنا المثل - ولله المثل الأعلى - أنت أعطيت لولدك قلما عاديا ، ولولدك الثانى قلما مرتفع القيمة ، ولولدك الثالث ساعة ، أما الولد الرابع فاشتريت له هدية غالية جدا ، ثم تأتى للأولاد وتقول لهم : أنا اشتريت لفلان قلما جافا ، ولفلان قلم حبر ، واشتريت لفلان ساعة ، وبعضهم اشتريت له هدية ثمينة . فـ « بعضهم » هذا قد عُرف بأنه الابن الرابع الذى لم تذكر اسمه ، فيكون قد تعين وتحدد .

١ - علماً بأن رسول الله ﷺ كانت له معجزات حسية كثيرة انظر كتاب : الفرقان ... لابن تيمية .

« تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله » وحين تقول كلم الله إياك أن تغفل عن قضية كلية تحكم كل وصف لله يوجد في البشر ، فأنا أتكلم والله يتكلم ، لكن أكلامه سبحانه مثل كلامي ؟ إن كنت تعتقد أن وجودي مثل وجوده فاجعل كلامي ككلامه ، وإن كان وجودي ليس كوجوده فكيف يكون كلامي ككلامه ؟

ربما يقول أحد: إن الكلام صوت وأحبال صوتية وغير ذلك، نقول له: لا، أنت لا تأخذ ما يخص الله سبحانه إلا في إطار «ليس كمثله شيء» ونحن نأخذ كل وصف يرد عن الله بواسطة الله، ولا نضع وصفا من عندنا، وبعد ذلك لا نقارنه بوصف للبشر. فلله حياة ولك حياة. لكن أحياة أي منا كحياته سبحانه ؟ لا، إن حياته ذاتية، وحياة كل منا موهوبة مسلوبة، فليست مثل حياته

وعندما يقول الحق :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة السجدة)

فهل جلوس الحق كجلوس الخلق؟ أو هل يكون كرسي الخالق ككرسي المخلوق؟ طبعا لا. ونحن المؤمنين نأخذ كل صفة عن الله في نطاق التنزيه: سبحان الله وليس كمثله شيء، فليس استواء الله مثل استواء البشر، وليس جلوس الحق مثل جلوس الإنسان.

ونضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى من قبل ومن بعد ـ هب أن صاحبا لك دعاك لتأكل عنده، ثم دعاك أحد كبراء القوم لتأكل عنده، لابد أنك تجد الطعام متفاوتا في جودته وأصنافه بين كل مائدة من موائد من دعوك، فإذا كان البشر أنفسهم تتفاوت بينهم الأمور الوصفية تبعا لمقاماتهم وقدراتهم وإمكاناتهم، فإذا ما ترقيت بالصفة إلى خالق كل الأشياء أيقنت أنه سبحانه منزه عن كل من سواه، وليس كمثله شيء.

إذن « كلم الله » تعنى أنه أعلم رسوله بأى وسيلة من وسائل الإعلام . « منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس » والحق سبحانه وتعالى يؤكد دائما فى الكلام عن سيدنا عيسى - أنّ عيسى ابن مريم مؤيد بروح القدس - ؛ لأن المسائل التى تعرض لها سيدنا عيسى تتطلب أن تكون روح القدس دائما معه ، ولذلك يقول الحق سبحانه عنه :

﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة مريم)

ففى الميلاد سيدنا عيسى تعرض لمشكلة ؛ لأنه ولد على غير طريقة ميلاد الناس ، واتهمت فيها أمه ، وجاء القرآن فنزهها ، وبرأها ، ووضع الأمر فى نصابه الحق ، وأيضا فى موته عندما أرادوا أن يقتلوه .

وحين ننظر إلى الرسل نجد أن مقتضى أن يرسل الله رسلاً إلى العالم هو أنه سبحانه قد خلق الخلق غير مكرهين على فعل ، ولا مسخرين كما تسخر بقية الأجناس فى الكون ، ودونه مباشرة الحيوان الذى ينقص عنه العقل ، وبعد الحيوان يأتى جنس النبات الذى ينقص عنه الحس والحركة ، وبعد ذلك الجماد الذى ينقص عن النبات ، تلك هى أجناس الوجود . والإنسان هو سيد هذه الأجناس . والسيادة جاءت له من ناحية أن الأجناس كلها مسخرة لخدمته لا بالاختيار ، ولكن بالقهر والقسر .

فالشمس لم تجئ مرة لتقول : لم يعد الخلق يعجبوننى لذلك لن أشرق لهم اليوم ، ولا الهواء امتنع عن أن يهب ، ولا المطر امتنع عن أن ينزل ، ولا الأرض امتنعت عن أن تعطى النبات عناصر غذائه ، إن الإنسان يركب الدابة ويسيرها كما يحب وكما يريد ، لا شيء يتأبى أبدا على الإنسان . وأنت أيها الإنسان الجنس الوحيد الذى وهبك الله الاختيار لتمارس مهمتك فى الوجود ، فإن شئت فعلت كذا ، وإن شئت لم تفعل كذا .

ولكن الله لم يدعك هكذا على إطلاقك ، بل إنّ فيه أموراً تضير برغم أنفك وأنت

مسخر فيها ، لا تستطيع ـ مثلا ـ أن تتحكم فى يوم ميلادك ، ولا فى يوم وفاتك ، ولا فيها ينزل عليك من الأحداث الخارجة عنك ، ولا فيما يدور من الحركة فى بدنك ، كل ذلك أنت مسخر فيه فلا تنفلت من قبضة ربك . ولكنك مختار فى أشياء .

ونعرف أنه سبحانه وتعالى قهر أجناساً على أن تكون كما يريد ، وكما يحب ، وتلك صفة القدرة ؛ لأن صفة القهر تفيد السيطرة . فإذا ما ترك جنسا يختار أن يؤمن ، ويختار ألا يؤمن ، وإن آمن يختار أن يطيع ويختار أن يعصى ، فهذه تثبت المحبوبية لله سبحانه وتعالى لمن اختار وآثر طاعة الله على المعصية .

ونحن نعرف أن القهر يخضع القوالب لكنه لا يخضع القلب . فأنت تستطيع أن تهدد إنسانا بمسدس وتقول له : « اسجد لى » فيسجد لك ، لكنك لا تستطيع أن تقول له ـ وهو تحت التهديد ـ « أحبنى » . فالحق سبحانه وتعالى يترك لنا الإيمان بالاختيار ، ويترك لنا الطاعة والمعصية اختياراً ، ليعلم من يأتيه حباً ومن يأتيه قهرا .

والعالم كله يأتى لله قهرا . وأنت أيها الإنسان فى ذاتك أشياء أنت مقهور فيها . ومن هنا ثبتت لله تعالى القدرة . وبقى أن تثبت له الحب . والعبد الصالح هو الذى يطيعه عن حب . ونحن قد سبق لنا أن ضربنا مثلا ـ ولله المثل الأعلى ـ وقلنا إن إنسانا عنده خادمان واحد اسمه سعد والآخر اسمه سعيد ، سعد قيده صاحبه بحبل ويجُرُّه قائلا : « ياسعد » فهل لسعد ألا يجىء ؟ لا . لكن صاحب العبدين ترك لسعيد الحرية ، وعندما يناديه فهو يأتيه .

إذن ، أيهما يحبه ، الذى جاء بالحبل أم الذى جاء بالمحبة ؟ إذن ، فمن كرامة الإنسان أن يثبت لله صفة المحبة إن آمن بالله ؛ لأنه سبحانه وتعالى لو شاء أن يهدى الناس جميعا ما استطاع أى واحد منهم أن يكفر به ، ولو شاء أن يكون مطاعا دائما ما استطاع واحد أن يعصيه أبداً . ولذلك قلنا : إن إبليس كان عالما حينما قال أمام الله تعالى :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة ص)

أقسم الشيطان لله بعزته سبحانه عن خلقه ، وكأنه قال : أنت يارب لو كنت تحتاج عبادك فأنا لا أستطيع أن آخذهم ، ولكن لأنك عزيز عليهم ، إن أرادوا أن يؤمنوا آمنوا ، وإن أرادوا ألا يؤمنوا لم يؤمنوا ؛ فهذا هو المدخل الذى سأدخل منه . ولذلك استثنى الشيطان بعضا من العباد لأنه لن يستطيع أن يجد لوسوسته لديهم مدخلا :

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

(سورة ص)

أى إن الذى يريد الله أن يستخلصه لنفسه فلن يستطيع الشيطان أن يقترب منه . إذن فإبليس ليس داخلا فى معركة مع الله تعالى ، ولكنه فى معركة معنا نحن . ولقد أوضح الحق ذلك حين جاء على لسان إبليس فى القرآن :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

(سورة ص)

إذن لو أراد الله أن نكون طائعين جميعا ، أيستطيع واحد أن يعصى ؟ لا يستطيع . ولو أرادنا مؤمنين جميعا ، أيستطيع واحد أن يكفر ؟ لا يستطيع . إنما شاء الله تعالى لبعض الأمور والأفعال أن يتركها لاختيارك ؛ لأنه يريد أن يعرف من الذى يأتيه طوعا وليظل العبد بين الخوف والرجاء ؛ ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : (لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد)[1] .

ولهذا فإن مطلوب الارتفاع الإيمانى ، والارتفاع اليقينى أن تحب الله لذات الله . وهو سبحانه يجرى عليك من الأحداث ما يشاء ، وتظل تحبه فيباهى الله بك الملائكة فتقول الملائكة : يارب يحبك لنعمتك عليه فيقول لهم : وأسلب نعمتى ولايزال يحبنى ، ويسلب الحق النعمة لكن العبد لايزال يحب الله ، فهو يحب الله ولا يحب نعمته لأنه سبحانه ذات تُحَب لذاتها بصرف النظر عن أنه يعطينا النعم .

---

(١) رواه مسلم بسنده عن أبى هريرة .

إذن الحق سبحانه وتعالى قد أرسل الرسل يحملون منهج الله لـمَنْ يريد أن يعلن حبه لله ، وأن يكون خليفة فى الأرض بحق ، وأن يُصلح فى الكون ولا يفسده . ونعرف أن الإصلاح له مرتبتان : أن تترك الصالح بطبيعته فلا تفسده ، أو أن تزيد الصالح صلاحاً . فلا تأتى على عين الماء التى تتدفق للناس وتردمها ، ولكنك تتركها على صلاحها إن لم تستطع أن تزيدها إصلاحاً . وقد تستطيع أن تزيد عين الماء صلاحاً ؛ فبدلاً من أن يذهب الناس متعبين إلى العين ويحملون منها الماء ، قد تصنع لهم مضخة عالية لها خزان ترفع إليه الماء وتمد « المواسير » وتوصل المياه إلى منازلهم . فأنت بذلك تزيد الأمر الصالح صلاحاً ، وهذه خلافة وعمارة فى الوجود. فإن لم تستطع أن تزيد الصالح صلاحاً فجنبنا شر إفسادك ، ودع الحال كما هى عليه ، واقعد كما أنت عالة فى الكون .

ولو أن الإنسان كان منصفاً فى الكون لسأل نفسه : مَنْ الذى اهتدى إلى صناعة الرغيف الذى نأكله الآن ؟ وسيعرف أنه قد أخذ تجارب الناس من أول آدم حتى وصل إلى صناعة هذا الرغيف ، فهناك إنسان زرع القمح ، وهناك إنسان آخر هداه الله أن يطحن هذا القمح ، وهو سبحانه هدى الإنسان أن يصنع منخلاً ليفصل الدقيق عن النخالة ، ثم هداه أن يعجن الدقيق حتى يجد له طعماً أفضل . ولا شك أنه ترك مرة قطعة من العجين ثم شُغل عنها بأى شاغل أو بأى سبب ثم رجع لها مرة أخرى فوجدها متخمرة ، فلما خبزها خرج له العيش أفضل طعماً ، إنه سبحانه قدر فهدى ، وإلا كيف تأتى هذه التجربة الطويلة ؟

ومثال آخر : إن الإنسان حين ينظف ثوبه ، لو أنه استعرض أعمال مَنْ سبقوه فى هذا الموضوع منذ آدم ، لعلم أن كل واحد سبقه فى الوجود أعطاه مرحلة من النفعية إلى أن وصل للغسالة الكهربائية التى تغسل له بدون تعب ، كل هذه الأشياء جاءت له بهدايات من الله .

وقد قلت مرة : لماذا طبخت الناس « الكوسة » ولم تطبخ « الخيار » ؟ إن هذه دليل على أن هناك تجارب كثيرة مرت على الإنسان حتى يميز طعم الكوسة المطبوخة عن الخيار ، وكذلك طبخ الناس الملوخية ولم يطبخوا النعناع ، مع أن النعناع أحسن

منها ، حدث ذلك ؛ لأن هناك تجارب وصلتنا بأن النعناع لا يُستساغ طعمه مطبوخا .

وأنت لو نظرت إلى أى شىء تستفيد به اليوم ، وقدرت الأعمال التى تداولته من يوم أن وُجد ، ستجد أن الحق قد قدر لكل إنسان عملاً ومجالاً ، وظل يخدمك أنت . ومادمت قد خُدمتَ بهؤلاء الناس كلهم من أول آدم وحتى اليوم ، فلا بد أن تنظر لترى ماذا ستقدم لمن يأتى من بعدك ، فلا تكن كسولاً فى الحياة ؛ تأخذ خير غيرك كله فى الوجود ، وبعد ذلك لا تعطى أى شىء ، بل لا بد أن يكون لك عطاء ، فكما أخذت من بيئتك لا بد أن تعطى هذه البيئة ، ولو لم يوجد هذا لما ارتقت الحياة ؛ لأن معنى ارتقاء الحياة أن إنساناً أخذ خبرة من سبقوه ، وحاول أن يزيد عليها ، أى أن يأخذ أكبر ثمرة بأقل مجهود .

فلو قدر الناس جهد الإنسان الذى ابتكر « العجلة » مثلا التى تسير عليها السيارة لكان عليهم أن يستغفروا الله له بمقدار ما أراحهم ، فبعد أن كان الإنسان يحمل على أكتافه قصارى ما يحمل ، وَفَّر عليه مَن اخترع هذا أن يحمل ويتعب ، وجعله يحمل أكبر كمية وينقلها بأقل مجهود .

إذن لا بد أن تنظر إلى النعم التى تستفيد بها الآن وترى كم مرحلة مرت بها ، وهل صنعها الناس هكذا أم تعبوا وكدوا واجتهدوا منذ بدء الوجود على الأرض ، وعرف الإنسان جيلا بعد جيل كيفية تطوير تلك الأشياء ، وقد يحدث خطأ فى مرحلة معينة فيبدأ الإصلاح أو التحسن وهكذا . فأنت عندما تجد أن العالم قدم لك كل هذه المنتجات ، لا بد أن تسأل نفسك : ما الذى ستقدمه أنت لهذا العالم ، وبذلك تظل الحلقة الإنسانية مرتقية ومتصلة .

والحق سبحانه وتعالى يرسل الرسل ويضع المنهج : « افعل كذا » و« لا تفعل كذا » ، حتى تستقيم حياة الناس على الأرض ، لكن الناس غلبت عليهم الغفلة عن أمر المنهج ؛ ولذلك تظهر فى الوجود فسادات بقدر الغفلة ، وعندما يزداد الفساد يبعث الحق سبحانه رسولا جديدا يذكرهم بالمنهج مرة أخرى ، وعندما يأتى الرسول

يؤمن به بعض من الناس ويحاربون معه ، وينتصر الرسول وتستقر مبادىء الله فى الأرض ، ثم تمر فترة وتأتى الغفلة فيحدث الخلاف ، فهناك أناس يتمسكون بمنهج الله ، وأناس يفرطون فى هذا المنهج ، ويحدث الخلاف وتقوم المعارك .

ولو كان الحق سبحانه وتعالى يريد الكون بلا معارك بين حق وباطل لجعل الحق مسيطرا سيطرة تسخير. لكن الله تعالى أعطانا تمكينا، وأعطانا اختبارا؛ لذلك نجد من ينشأ مؤمنا، ومن ينشأ كافرا نجد الطائع، ونجد العاصى، هذا فريق، وهذا فريق. وإياك أن تفهم أن وجود الكافرين فى الأرض، أو وجود العصاة فى الكون دليل على أنهم غير داخلين فى حوزة الله، لا . بل إن الله تعالى هو الذى أعطاهم هذا الاختيار، ولو شاء الله أن يجعل الناس أمة واحدة لما استطاع إنسان أن يخرج على مراد الله.

وفى الآية التى نحن بصددها جاء الحق بأولى العزم من الرسل: سيدنا موسى عليه السلام، ورسول الله صلى الله عليه وسلم، وسيدنا عيسى عليه السلام وبعد ذلك يقول سبحانه:

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾

(من الآية ٢٥٣ سورة البقرة)

إذن ما الذى جعل الناس تقتتل فيما بينها؟ إنه الاختلاف بين الناس، لقد اختلفوا فاقتتلوا. لكن ألا يمكن أن يكونوا قد اختلفوا ولم يقتتلوا؟ إن ذلك لو حدث لكان إجماعا على الفساد. والحق سبحانه لا يريد أن يحدث هذا الإجماع على الفساد، فإن لم يسيطر الخير على أمور البشر فلا أقل من أن يظل عنصر الخير موجودا، ويأتى واحد ليجد عنصر الخير وينميه.

إن الحق سبحانه لا يمحو فى أزمنة الباطل معالم الخير والأفعال الحسنة ، بل يستبقى - سبحانه - معالم الخير والأفعال الحسنة ليذهب إليها أى إنسان يريد الخير ، وقد يكون الخير ضعيفا ، ولكن الله لا يمحوه ؛ لأنه يعطى به دفعة جديدة لمؤمنين جدد يرفعون راية الحق ، وإن بدأوا ضعفاء . ولذلك نجد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم يقول : « لولا عباد لله ركع وصبية رُضّع وبهائم رتع لصب عليكم العذاب صبا »[1] .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم ينبهنا ألا ننظر إلى الضعفاء على أنهم عالة وأننا أقوياء لمجرد أنهم يعيشون فى أكنافنا . بل قد يكونون سياج لطف ورحمة كما فى الحديث السابق .

إن الله سبحانه وتعالى رفع عنا العذاب من أجل وجود الضعفاء بيننا ، لأن فى الضعاف يوجد شىء من الخير ، ولتظل فى الوجود خلية من الخير حتى إذا ما أراد الوجود أن يفيق إلى الرشد فإنه سيجد من الخير ما يرشده . إذن لولا الاقتتال لعم الفساد ، وانتهت المسألة . لكن الناس اختلفت فمنهم من آمن ، ومنهم من كفر ، « ولو شاء الله ما اقتتلوا » أى لظلوا على منهج واحد من الكفر أو من الفساد ، لكن الله يفعل ما يريد . وفى الاقتتال - كما نعرف - هناك تضحيات بالنفس ، وتضحيات من أجل أن تظل القيم السماوية على الأرض .

وتقتضى التضحية إما أن يجود الإنسان بنفسه وإما أن يجود بماله ، ولذلك فمن المناسب هنا أن نتكلم عن النفقة وهى الجود بالمال ، وخاصة أنه فى الزمن القديم كان المقاتل هو الذى يجهز عدة قتاله : فرسه ، رمحه ، سيفه ، سهامه ، لذلك فهو يحتاج إلى إنفاق ، ويتكلم الحق عن هذه المسألة لأن الأمر بصدد استبقاء خلية الإيمان المصورة فى المنهج السماوى الذى جاء به الرسل ؛ ليظل هذا المنهج فى الأرض حتى يفىء إليه الناس إن صدمهم الشر أو صدمهم الباطل فيقول :

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير والبيهقى فى السنن الكبرى .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾

ونحن نعرف أن كل نداء من الحق يبدأ بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا » إنما يدل على أن ما يأتى من بعد هذا القول هو تكليف لمن آمن بالله ، وليس تكليفا للناس على إطلاقهم ؛ لأن الله لا يكلف من كفر به ، إنما يكلف الله من آمن به ، ومن اجتاز ذلك وأصبح فى اليقين الإيمانى فهو أهل لمخاطبة الله له ، فكأنه يجد فى القول الربانى نداء يقول له : يا من آمن بى إلها حكيما قادرا مشرعا لك ، أنا أريد منك أن تفعل هذا الأمر .

إذن الإيمان بالله هو حيثية كل حكم ، فأنت تفعل ذلك لماذا ؟ لا تقل: لأن حكمته كذا وكذا . لا . ولكن قل: لأن الله الذى آمنت به أمرنى بهذه الأفعال ، سواء فهمت الحكمة منها أو لم تفهمها ، بل ربما كان إقبالك على أمر أمرك الله به وأنت لا تفهم له حكمة أشد فى الإيمان من تنفيذك لأمر تعرف حكمته .

ولو أن إنسانا قال له الطبيب : إن الخمر التى تشربها تفسد كبدك وتعمل فيك كذا وكذا ، وبعد ذلك امتنع عن الخمر ، صحيح أن امتناعه عن الخمر صادف طاعة لله ، لكن هل هو امتنع لأن الله قال ؟ لا ، لم يمتنع لأن الله قال ، ولكنه امتنع لأن الطبيب قال ، فإيمانه بالطبيب أكثر من إيمانه برب الطبيب . أما المؤمن فيقول : أنا لا أشرب الخمر ؛ لأن الله قد حرمها ، ولماذا أنتظر حتى يقول لى الطبيب : إن كبدك سيضيع بسبب الخمر ، فالرحمة هى ألا يجىء الداء .

إن الحق يقول : « يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم » أى أنا لا أطلب منكم

أن تنفقوا على ، ولكن أنفقوا من رزقى عليكم ؛ لأن الرزق يأتى من حركة الإنسان ، وحركة الإنسان تحتاج طاقة تتحرك فى شىء أو مادة ، وهذه الحركة تأتى على ترتيب فكر ، وهذا الفكر رتبه من خلقه ، والجوارح التى تنفعل ، واليد التى تتحرك ، والرِّجل التى تمشى خلقها الله ، والمادة التى تفعل بها مخلوقة لله . وسنأخذ الزارع نموذجا ، نجد أن الأرض التى فيها العناصر مخلوقة لله ، إذن فالإنسان يعمل بالعقل الذى خلقه الله ، ويخطط بالجوارح التى خلقها الله لتأتى له بالطاقة التى يعمل بها فى المادة التى خلقها الله لتعطى للإنسان خيرها . . فأى شىء للإنسان إذن ؟

ومع ذلك إن حصل للإنسان خير من هذا كله فهو سبحانه لا يقول: « إنه لى » بل أمنحه لك أيها الإنسان ،ولكن أعطنى حقى فيه ، وحقى لن آخذه لى ولكن هو لأخيك المسكين ، والحق يقول :

﴿ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

وإياك أن تقول : وما دخلى أنا بالمسكين ؟ عليك أن تعلم أنّ المسكنة عَرَض ، والعرض من الممكن أن يلحق بك أنت . فلا تُقدِّر أنك معطٍ دائما ، ولكن قدر أنك ربما حدث لك ما يجعلك تأخذ لا أنْ تعطى . الحق يقول لك:أعط المسكين وأنت غنى ؛ لأنه سبحانه سيقول للناس:أن يعطوك وأنت فقير ، فقدِّر حكم الله ساعة يُطلب منك ، ليحميك ساعة أن يُطلب لك ، وبذلك تتوازن المسألة .

ومع أنه سبحانه هو الذى يرزق ، فهو يريد منكم أيها العباد أن تتعاونوا وأن يحب بعضكم بعضا ، حتى تُمحى الضغائن من قلوبكم ؛ لأن الإنسان الضعيف ـ ضعفا طبيعيا وليس ضعف التسول أو الكسل أو الاحتراف ، بل ضعف عدم القدرة على العمل ـ هو مسئولية المؤمنين ، فسبحانه وتعالى يجعل القوى مسئولا أن يساعدك وأنت ضعيف .

وأنت حين ترى ـ وأنت ضعيف لا تقدر ـ الأقوياء الذين قدروا لم ينسوك ، وذكروك بما عندهم ، عندئذ تعلم أنك فى بيئة متساندة تحب لك الخير ، فإن رأيت

نعمة تنالك إن عجزت فأنت لا تحسدها أبداً ، ولا تحقد على معطيها ، بل تتمنى من حلاوة وقعها فى نفسك - لأنها جاءتك عن حاجة - تتمنى لو أن الله قدرك لتردها ، فيكون المجتمع مجتمعا متكافلا متضامنا .

فحين يقول الله تعالى : « أنفقوا مما رزقناكم » فأنتم لا تتبرعون لذات الله بل تنفقون مما رزقكم ، ومن فضل الله عليكم أنه احترم أثر عملكم ونسبه لكم حتى وإن احتاج أخوك ، فهو سبحانه يقول :

﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إن الحق سبحانه قد اعتبر النفقة فى سبيل الله هى قرض من العبد للرب الخالق الوهاب لكل رزق . وحتى نفهم معنى النفقة أقول : قد قلنا من قبل : إن الكلمة مأخوذة من مادة « النون والفاء والقاف » ، ويقال: نفقت السوق أى انتهت بسرعة وتم تبادل البضائع فيها بالأثمان المقررة لها ، ونحن نعرف أن التجارة تعنى مقايضة بين سلع وأثمان . والسلعة هى ما يستفاد بها مباشرة . والثمن ما لا يستفاد به مباشرة .

فعندما تكون جائعا أيغنيك أن يكون عندك جبل من ذهب ؟ إن هذا الجبل من الذهب أنت لا تستفيد منه مباشرة ، أما فائدتك من رغيف الخبز فهى استفادة مباشرة ، وكذلك كوب الماء الممتلىء ، تستفيد منه مباشرة ، والملابس التى ترتديها أنت تستفيد منها مباشرة . إذن فالذى يستفاد منه مباشرة اسمه سلعة ، والذى لا يستفاد منه مباشرة نسميه ثمناً . ولذلك يقول لنا الحق إنذارا وتحذيرا من الاعتزاز بالمال :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إن الحق سبحانه ينبهنا أن ننفق من رزقه لنا من قبل أن يأتى اليوم الاخر الذى لا بيع فيه ؛ أى لا مجال فيه لاستبدال أثمان بسلع أو العكس ، وأيضا لا يكون فى هذا اليوم « خُلة » ، ومعنى « خلة » هى الود الخالص ، وهى العلاقة التى تقوم بين اثنين فيصير كل منهما موصولا بالآخر بالمحبة ؛ لأن كُلًّا منكما منفصل عن الآخر ، وإن ربطت بينكما العاطفة وفى الآخرة سيكون كل إنسان مشغولا بأمر نفسه .

إن اليوم الآخر ليس فيه بيع ولا شراء ولا فيه خلة ولا شفاعة ، وهذه هى المنافذ التى يمكن للإنسان أن يستند عليها . فأنت لا تملك ثمنا تشترى به ، ولا يملك غيرك سلعة فى الآخرة ، إذن فهذا الباب قد سد . وكذلك لا يوجد خلة أو شفاعة ، والشفاعة هذه مأذون فيها . إن كانت ممن أذن له الله أن يشفع فهى فى يد الله ، ومعنى « شفيع » مأخوذة من الشفع والوتر . الوتر واحد والشفع اثنان ، فكأن الشفيع يضم صوته لصوتى لنقضى هذه الحاجة عند فلان . فيتشفع الإنسان بإنسان له جاه عند المشفوع عنده حتى ينفذ له ما يطلب . ولكن هذه الوسائل فى الآخرة غير موجودة . فلا بيع ولا خلة ولا شفاعة ؛ فأنتم إذا أنفقتم اتقيتم ذلك اليوم ، فانتهزوا الفرصة من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة .

وهذه هى أبواب النجاة المظنونة عند البشر التى تُغلق فى هذا اليوم العظيم . وكأن الحق سبحانه وتعالى يقول : أنا لم أفوت فرصة على خلقى ؛ خلقى هم الذين ظلموا أنفسهم ووقفوا أنفسهم هذا الموقف ، فأنا لم أظلمهم . لذلك يذيل الحق الآية بقوله : « والكافرون هم الظالمون » .

وبعد أن تكلم الله سبحانه وتعالى عن الرسل ، وعن الاختلاف ، وعن القتال لتثبيت منهج الحق ، وعن الإنفاق ، يوضح لنا التصور الإيمانى الصحيح الذى فى ضوئه جاءت كل هذه المسائل . فقد جاء موكب الرسالات كلها من أجل هذا المنهج فقال سبحانه :

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥ ﴾

ونقف بالتأمل الآن عند قوله الحق : « الله لا إله إلا هو » . إن كلمة « الله » هي عَلَمٌ على واجب الوجود . وعندما نقول : « الله » فإن الذهن ينصرف إلى الذات الواجبة الوجود .

ما معنى « واجبة الوجود » ؟ إن الوجود قسمان : قسم واجب ، وقسم ممكن . والقسم الواجب هو الضروري الذي يجب أن يكون موجودا ، والحق سبحانه وتعالى حين أعلمنا باسمه « الله » أعطانا فكرة على أن كلمة « الله » هذه يتحدى بها ـ سبحانه ـ أن يُسمى بها سواه . ولو كنا جميعا مؤمنين لكان احترامنا لهذا التحدي نابعا من الإيمان . ولكنّ هناك كافرون بالله ومتمردون وملحدون يقولون : « الله خرافة » ، ومع ذلك هل يجرؤ واحد من هؤلاء أن يسمى نفسه « الله » ؟

لم يفعل أحد هذا ؛ لأن الله تحدى بذلك ، فلم يجرؤ واحد أن يدخل في هذه التجربة . وعدم جرأة الكفار والملاحدة في أن يدخلوا في هذه التجربة دليل على أن كفرهم غير وطيد في نفوسهم ، فلو كان كفرهم صحيحا لقالوا : سنسمى ونرى ما يحدث ، ولكن هذا لم يحدث .

إذن « الله » علَم واجب الوجود المتصف بكل صفات الكمال . وبعد ذلك جاء

بالقضية الأساسية وهي قوله تعالى : « لا إله إلا هو » وهنا نجد النفى ونجد الإثبات ، النفى فى « لا إله » ، والإثبات فى « إلا هو » . والنفى تخلية والإثبات تحلية . خلى سبحانه نفسه من وجود الشريك له ثم أثبت لنا وحدانيته . و« لا إله إلا هو » أى لا معبود بحق إلا الله . ونعرف أن بعضا من البشر فى فترات الغفلة قد عبدوا أصناما وعبدوا الكواكب . ولكن هل كانت آلهة بحق أم بباطل ؟ لقد كانت آلهة بباطل . ودليل صدق هذه القضية التى هى « لا إله إلا الله » ، أى لا معبود إلا الله أن أحدا من تلك الألهة لم يعترض على صدق هذه القضية . إذن فهذا الكلام هو حق وصدق .

وإن ادعى أحد غير ذلك ، نقول له : إن الله قد أخبرنا أنه لا معبود بحق غيره ؛ لأنه هو الذى خلق وهو الذى رزق ، وقال:أنا الذى خلقت . إن كان هذا الكلام صحيحا فهو صادق فيه ، فلا نعبد إلا هو . وإن كان هذا الكلام غير صحيح ، وأن أحدا غيره هو الذى خلق هذا الكون فأين هذا الأحد الذى خلق ، ثم ترك من لم يخلق ليأخذ الكون منه ويقول : « أنا الذى خلق الكون » ؟ إنه أمر من اثنين ، الأمر الأول : هو أنه ليس هناك إله غيره . فالقضية - إذن - منتهية . والأمر الآخر : هو أنه لو كان هناك آلهة أخرى ، وبعد ذلك جاء واحد وقال : « أنا الإله وليس هناك إله إلا أنا » . فأين هذه الألهة الأخرى ؟ ألم تعلم بهذه الحكاية ؟

إن كانوا لم يعلموا بها ، فهم لا يصلحون أن يكونوا آلهة ، وإن كانوا قد علموا فلماذا لم يقولوا : لا . نحن الألهة ، وهذا الكلام كذب ؟ وكما بعث الله رسلا بمعجزات كان عليهم أن يبعثوا رسولا بمعجزات . فصاحب الدعوة إذا ادّعاها ولم يوجد معارض له ، تثبت الدعوى إلى أن يوجد مُنازع .

إذن كلمة « لا إله إلا الله » معها دليل الصدق ؛ لأنه إما أن يكون هذا الكلام حقا وصدقا فتنتهى المسألة ، وإن لم يكن حقا فأين الإله الذى خلق والذى يجب أن يُعبد بعد أن سمع من جاء ليأخذ منه هذه القضية ؟ وبعد ذلك لا نسمع له حسا ولا حركة ، ولا يتكلم ، ولا نعلم عنه شيئا ، فما هو شأنه ؟ إما أنه لم يعلم فلا يصلح أن يكون إلها ؛ لأنه لو كان قد علم ولم يرد فليست له قوة . ولذلك ربنا

سبحانه يأتى بهذه القضية من ناحية أخرى فيقول :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

فلو كان عند تلك الآلهة المزعومة مظاهر قوة لذهبوا إلى الله سبحانه وتعالى وأنكروا ألوهيته ، ولو كان هناك إله غير الله لحدثت معركة بين الآلهة ، ولكن هذا لم يحدث . فالكلمة « لا إله إلا الله » صدق فى ذاتها حتى عند من ينكرها ، والدليل فيها هو عدم وجود المنازع لهذه الدعوى ؛ لأنه إن لم يوجد منازع فقد ثبت أنه سبحانه لا إله إلا الله . وإن وجد المنازع نقول : أين هو؟

وأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - هب أننا فى اجتماع ، وبعد ذلك وجدنا حافظة نقود ، فعرضناها على الموجودين ، فلم نجد لها صاحبا ، ثم جاء واحد كان معنا وخرج ، وقال : يا قوم بينما كنت أجلس معكم ضاعت حافظة نقودى . ولما لم يدعها واحد منا لنفسه فهى إذن حافظته هو .

إذن « لا إله إلا الله » هى قضية تمتلىء بالصدق والحق ، والله هو المعبود الذى يُتوَجّه إليه بالعبادة ، والعبادة هى الطاعة . فمعنى عابد أى طائع ، وكل طاعة تقتضى أمرا وتقتضى نهيا ، ومادامت العبادة تقتضى أمرا وتقتضى نهيا ، فلا بد أن يكوّن المأمور والمنهى صالحا أن يفعل وصالحا ألاّ يفعل . فعندما نقول له : افعل كذا كمنهج إيمان ، فهو صالح لئلا يفعل . وعندما نقول له : لا تفعل فهو صالح لأن يفعل ، وإلا لو لم يكن صالحا ألا يفعل أيقول له « افعل » ؟ لا ، لا يقول له ذلك . ولو كان صالحا ألا يفعل أيقول له « لاتفعل » ؟ إن ذلك غير ممكن .

إذن لا بد أن يكون صالحا لهذه وتلك وإلا لكان الأمر والنهى عبثا ولا طائل من ورائها . لذلك عندما أرادوا أن يقصروا الإسلام فى العبادات الطقسية التى هى شهادة لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، والصلاة ، والصوم ، والزكاة ،

والحج ، قالوا : هل هذا هو كل الإسلام ، وقالوا : إنه دين يعتمد على المظاهر فقط ، قلنا لهم : لا ، إن الإسلام هو كل حركة فى الحياة تناسب خلافة الإنسان فى الأرض ؛ لأن الله يقول فى كتابه الكريم :

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾

(من الآية ٦١ من سورة هود)

« واستعمركم فيها » أى طلب منكم أن تعمروها ، فكل حركة فى الحياة تؤدى إلى عمار الأرض فهى من العبادة ، فلا تأخذ العبادة على أنها صوم وصلاة فقط ؛ لأن الصوم والصلاة وغيرهما هى الأركان التى ستقوم عليها حركة الحياة التى سيُبنى عليها الإسلام ، فلو جعلت الإسلام هو هذه الأركان فقط لجعلت الإسلام أساسا بدون مبنى ، فهذه هى الأركان التى يُبنى عليها الإسلام ، فإذن الإسلام هو كل ما يناسب خلافة الإنسان فى الأرض يبينّ ذلك ويؤكده قول الله تعالى :

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾

(من الآية ٦١ من سورة هود)

ويخرج إلينا أناس يقولون : نحن ليس لنا إلا أن نعبد ولا نعمل . ونقول لأى منهم : كم تأخذ الصلاة منك فى اليوم ؟ ساعة مثلا . والزكاة كم تأخذ منك فى العام يوما واحدا فى العام ؟ والصوم كم يأخذ منك من وقت ؟ نهار أيام شهر واحد . وفريضة الحج أتأخذ منك أكثر من رحلة واحدة فى عمرك ؟ فبالله عليك ماذا تفعل فى الباقى من عمرك من بعد ذلك وهو كثير ؟ إنك لا تأخذ أكثر من ساعة فى اليوم للصلاة ، ولا تأخذ أكثر من يوم فى السنة لإخراج الزكاة،وتقضى شهرا فى السنة تصوم نهاره . وتحج مرة واحدة فى عمرك ، فماذا تفعل فى بقية الزمان ، ستأكل وتلبس ، ستطلب رغيف الخبز للطعام فمن الذى سيصنعه لك ؟ إن هذا الرغيف يمر بمراحل حتى يصير لقمة تأكلها . ويحتاج إلى أكثر من علم وأكثر من حركة وأكثر من طاقة .

إن المحل الذى يبيعه فقط ولا يخبزه يحتاج إلى واجهة من زجاج أو غيره ، ولا بد أن يعمل فيه من يذهب بعربته إلى المخبز ليحمل الخبز ، وينقله إلى المحل ويبيعه ،

وإذا نظرت إلى الفرن فسوف تجد مراحل عدة من تسليم وتسلم للدقيق ، ثم إلى العجين ، وإلى النار التى توقد بالمازوت ، ويقوم بذلك عمال يحتاجون لمن يخطط لهم ، وقبل ذلك كان الدقيق مجرد حبوب ، وتم طحنها لتصير دقيقا ، وهناك مهندسون يديرون الماكينات التى تطحن ، ويعملون على صيانتها ، وبعد ذلك الأرض التى نبت فيها القمح وكيف تم حرثها ، وتهيئتها للزراعة ، وريها ، وتسميدها ، وزرعها ، وحصدها ، وكيف دُرِسَ القشر والسنابل ، وكيف تتم تذريته من بعد ذلك ، لفصل الحبوب عن التبن ، وتعبئة الحبوب ، إلى غير ذلك ؟

انظر كم من الجهد أخذ رغيف الخبز الذى تأكله ، وكم من الطاقات وكم رجال للعمل ، فكيف تستسيغ لنفسك أن يصنعوه لك ، وأنت فقط جالس لتصلى وتصوم ؟ لا ، إياك أن تأخذ عمل غيرك دون جهد منك .

مثال آخر ، أنت تلبس جلبابا ، كم أخذ هذا الجلباب من غزل ونسج وخيط ؟ إذن فلا تقعد ، وتنتفع بحركة المتحرك فى الحياة ، وتقول:أنا مخلوق للعبادة فقط ، فليست هذه هى العبادة ، ولكن العبادة هى أن تطيع الله فى كل ما أمر ، وأن تنتهى عن كل ما نهى فى إطار قوله تعالى : « هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها » إن كل عمل يعتبر عبادة ، وإلا ستكون « تنبلا » فى الوجود . والإيمان الحق يقتضى منك أن تنتفع بعملك ولا تعتمد على عمل غيرك .

إن الحق سبحانه وتعالى قد استخلفنا فى الأرض من أجل أن نعمرها . ومن حسن العبادة أن نتقن كل عمل وبذلك لا نقيم أركان الإسلام فقط ، ولكن نقيم الأركان والبنيان معا . ونكون قد أدينا مسئولية الإيمان ، وطابق كل فعل من أفعالنا قولنا: « لا إله إلا الله » .

ولقد عرفنا أن كلمة « الله » هى علَم على واجب الوجود ، وهى الاسم الذى اختاره الله لنفسه وأعلمنا به ، ولله أسماء كثيرة كما روى فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سأل الله بكل اسم هو له أنزله فى كتابه أو علمه أحدًا من خلقه - أى خصّه به - أو استأثر به فى علم الغيب عنده ، فلا تظنن أن أسماء الله هى

كلها هذه الأسماء التى نعرفها ، ولكن هذه الأسماء هى التى أذن الله سبحانه وتعالى بأن نعلمها .

ومن الجائز ، أو من لفظ الحديث نعلم أن الله قد يُعلّم بعضا من خلقه أسماء له ، ويستأثر لنفسه بأسماء سنعرفها يوم القيامة حين نلقاه ، وحين نتكلم عن الأسماء الأخرى نجد أنها ملحوظ فيها الصفة ، ولكنها صارت أسماء لأنها الصفة الغالبة ، فإذا قيل: « قادر » نجد أننا نستخدم هذه الكلمة لوصف واحد من البشر ، ولكن « القادر » إذا أطلق انصرف إلى القادر الأعلى وهو الله . وكذلك « السميع » ، و« البصير » . و« العليم » .

إننا نجد أن بعضا من أسماء الله سبحانه وتعالى له مقابل ، ومن أسماء الله الحسنى ما لاتجد له مقابلا . فإذا قيل « المحيى » تجد « المميت » ، و« المعز » تجد « المذل » ، لأنها صفة يظهر أثرها فى الغير ، فهو مميت لغيره ، ومعزّ لغيره ، ومذل لغيره ، لكن الصفة إن لم يوجد لها مقابل نسميها صفة ذات ، فهو « حى » ولا نأتى بالمقابل إنما « مُحيى » نأتى بالمقابل وهو « المميت » ، فهذه اسمها صفة فعل . فصفات الفعل يتصف بها وبمقابلها لأنها فى الغير . لكن صفة الذات لا يتصف إلا بها .

وحينما قال الحق : « الله » فهو سبحانه يريد أن يعطينا بعض تجليات الله فى أسمائه ، فقال : « الله لا إله إلا هو » ليحقق لنا صفة التوحيد ، ويجب أن نعلم أن « إلا » هنا ليست أداة استثناء ، لأنها لو كانت أداة استثناء فكأنك تنفى أن توجد آلهة ويكون الله من ضمن هذه الآلهة التى نفيتها وذلك غير صحيح .وإنما المراد أنه لا آلهة أبداً غير الله فهو واحد لا شريك له ، وأنه لا معبود بحق إلا هو فكلمة « إلاّ » ليست للاستثناء وإنما هى بمعنى غير ، أى لا إله غير الله .

وقد عرفنا أن هذه القضية معها دليلها ، وإلا فلو كان هناك إله آخر لقال لنا: إنه موجود . لكن لا إله إلا هو سبحانه أبلغنا « الله لا إله إلا هو » . وأعجبنى ما قاله الدكتور عبدالوهاب عزام - رحمة الله عليه - وكان متأثرا بالشاعر الباكستانى « إقبال » ، كان للشاعر إقبال شىء اسمه « المثانى » ، أى أن يقول بيتين من الشعر فى

معنى ، وبيتين من الشعر فى معنى ، وكان يغلب على شعر إقبال الفلسفة الإسلامية والفكر الإسلامى ، وقد تأثر الدكتور عبدالوهاب عزام بشعر إقبال فجعل له مثانى أيضا يناظر فيها « إقبال » ، فيقول :

إنما التوحيد إيجاب وسلب وفيهما للنفس عزم ومضاء

وقوله : « إنما التوحيد إيجاب وسلب » هو قول متأثر بالقضية الكهربية . فيقول : إنما التوحيد إيجاب وسلب فيهما للنفس عزم ومضاء . فأنت عندما تقول : « لا إله » ، فـ« لا » للنفى ، وعندما تكمل قولك: « إلا الله » فـ « إلا » للإثبات ، ويكمل الدكتور عزام قوله : لا وإلاّ قوة قاهرة . فهما فى القلب قطبا الكهرباء كأن الكهرباء تأتى بأنك تسلب وتوجب . فالإيجاب فى « إلا » والسلب فى « لا » . ومادام فيه إيجاب وسلب ، إذن ففيه شرارة كهرباء .

« الله لا إله إلا هو الحىّ القيوم » ، و« الحىّ » هو أول صفة يجب أن تكون لذلك الإله ، لأن القدرة بعد الحياة ، والعلم بعد الحياة . فكل صفة لابد أن تأتى بعدها فى الذكر وإلا فليست صفة من صفات الله أسبق من صفة ولا متقدمة عليها فكلها قديمة لا أول لها ، فلو كان عدماً فكيف تأتى الصفات على العدم ؟ ، وكلمة « حىّ » عندما نسمعها نقول : ما هو الحىّ ؟ . إن الفلاسفة قد احتاروا فى تفسيرها . فمنهم من قال : الحىّ هو الذى يكون على صفة تجعله مُدْرِكاً إن وُجِدَ ما يُدْرَكْ .

كأن الفيلسوف الذى قال ذلك : يعنى بالحياة حياتنا نحن ، وما دوننا كأنه ليس فيه إدراك . ونقول لصاحب هذا الرأى : لا ، إن أردت الحياة بالمعنى الواسع الدقيق فلا بد أن تقول : الحياة هى أن يكون الشىء على الصفة التى تبقى صلاحيته لمهمته ، هذا هو ما يجب أن يكون عليه التعريف ، فـ « الحىّ » : هو الذى يكون على صفة تُبقى له صلاحيته لمهمته ، مثال ذلك النبات ، مادمت تجده ينمو ، إذن ففيه حياة تُبقى له صلاحية مهمته . فلو قُطعَ لانتهت الصلاحية . ومثل الإنسان عندما يموت تنتهى صلاحيته لمهمته ، والعناصر الجامدة عندما تأتى مع بعضها تتفاعل ، هذا التفاعل فرع وجود الحياة ، لكنها حياة مناسبة لها وليست مثل حياتنا .

أنت مثلاً ترى « الزلط » الناعم الأملس ، تجده على مقدار واحد ؟ لا ، إن أشكاله مختلفة ، وهذا دليل على أن هناك مراحل للحجر الواحد منها ، ولو استمرت تلك الأحجار فى بيئتها الطبيعية فلاشك أن هذه الكبيرة تفتت يوماً وتصير صغيرة ثم تكبر مرة أخرى ، لكن الإنسان حين يستخدم هذه الحجارة ليضعها على سبيل المثال بين القضبان التى تسير عليها القطارات فهذه الأحجار تكون قد خرجت من بيئتها . ومن حكمة الله أنه لا يوجد شيء تنتهى جدواه أبداً ، بل هو سبحانه يهيء لكل شيء مهمة أخرى .

إذن فكل كائن يكون على صفة تُبقى له صلاحيته لمهمة ، وتكون له حياة مناسبة لتلك المهمة . نحن لا نأتى بهذاالكلام من عندنا ، ولكننا نأتى بهذا الكلام لأننا نقرأ القرآن بإمعان وتدبر ، ونقول : ماذا يقابل الحياة فى القرآن ؟ إنه الهلاك بدليل أن الله قال :

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الأنفال)

إذن فالحياة مقابلة للهلاك . و« الحيّ » غير هالك . والهالك لا يكون حياً ، ويقول تعالى فى الآخرة :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة القصص)

ومعنى ذلك أن كل الأجناس من أعلاها إلى أدناها ، سواء الإنسان ، أو الملائكة ، أو الحيوان أو النبات ، كلها ستكون هالكة ، ومادام كل شيء سيهلك يوم القيامة فكأنه لم يكن هالكاً قبل ذلك ، وله حياة مناسبة له . أليست الحجارة شيئاً ، وستدخل فى الهلاك يوم القيامة ؟ . إذن فهى قبل ذلك غير هالكة . لكننا نحن البشر لا نفطن إلى ذلك ونفهم الحياة فقط على أنها الحس والحركة الظاهرة . مع أن العلماء قد أثبتوا أنه حتى الذرة فيها دوران ، ولها حياة . وأنت عندما تنظر بالمجهر على ورقة من النبات ، وترى ما بها من خضر وخلايا ، وتشاهد العمليات التى تحدث بها ، وتقول : هذه حياة أرقى من حياتنا ، وأدق منها .

إذن فكل شيء له حياة ، وإياك أن تظن أنك أنت الذى تهلكها ، فعندما تأتى بحجر وتدقه أو تضعه فى الفرن لتصنع الجير ؛ إياك أن تقول: إنك أذهبت من الأحجار الحياة المناسبة لها ، أنت فقط قد حولت مهمتها من حجر صلب ، وصارت لها مهمة أخرى ، فالمسائل تتسلسل إلى أن يصير لكل شيء فى الوجود حياة تناسب المهمة التى يصلح لها .

وانظر إلى مهمة الحق ، ما شكلها ؟ إنها الحياة العليا ، وهو الحى الأعلى وحى لا تُسلب منه الحياة ، لأن أحدا لم يعطه الحياة ، بل حياته سبحانه ذاتية ، فهذا هو الحى على إطلاقه .

إذن فالحى على إطلاقه هو الله والحق سبحانه وتعالى قال : « الله لا إله إلا هو الحىّ » وأثر صفة هذه موجود فى كل الصفات الأخرى فقال : « القيوم » . والقيوم هو صفة مبالغة فى قائم . ومثلها قولنا : « الله غفور » لكن ألا يوجد غافر ؟ يوجد غافر ، لكن « غفور » هى صفة مبالغة .

وقد يقول قائل : هل صفات الله فيها صفة قوية وأخرى ضعيفة ؟ . نقول : لا ، فصفات الله لا يصح أن توصف بالضعف أو بالقوة ، صفات الله نظام واحد . وحتى نفهم ذلك فلنضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ نحن نقول : كلنا نأكل كى نستبقى حياتنا ، فكل واحد منا « آكل » ، لكن عندما نقول : فلان أكول ، فمعنى ذلك أنه أخذ صفة الأكل التى كلنا شركة فيها وزاد فيها فنقول عليه: « أكّال » أو « أكول » .

من أى ناحية تأتى هذه الزيادة ؟ قد تأتى الزيادة من أنك تأكل فى العادة رغيفا ، وهو يأكل رغيفين أو ثلاثة ، إذن فالحدث له فى الأكل أثر كبير ، فنقول عليه : أكول . وقد يأكل معك رغيفا فى الوجبة الواحدة ، لكنه يأكل خمس وجبات بدلا من ثلاث وجبات ؛ فيكون أيضا أكولا ، إذن فـ « أكول » إما مبالغة فى الحدث نفسه وإما بتكرار الحدث .

ونحن ننظر إلى صفات الله ونقول: إنها لا تحتمل القوة والضعف فى ذات الحدث ،

إنما فى تكررها بالنسبة للمخلوقين جميعاً ، فالله غافر لهذا ، وغافر لذاك ، وغافر لكل عاص يتوب ، إذن فالحدث يتكرر ، فيكون « غفوراً » و« غفارا » . وهذا ما يحل لنا الإشكال فى كثير من الأمور ، فعندما يقول سبحانه :

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة فصلت)

فنحن هنا نجد قضية لغوية تقول : إنك إذا جئت بصيغة المبالغة ، وأثبتها ، تكون الصيغة الأخرى الأقل منها ثابتة بالضرورة ، مثال ذلك عندما نقول : فلان « علاّم » أو « عالم » ، فمادمت أثبت له الصفة القوية ؛ تكون الصفة الضعيفة موجودة ، لكن إذا نفيت الصفة المبالغ فيها قد تكون الصفة الأخرى موجودة ، فهو ليس « علامة » لكنه قد يكون « علاماً » أو « عالما » ، فإذا قلت : فلان « علامة » فقد أثبت له الأدنى أيضاً ، فيكون « علاّما » و« عالما » . لكن إذا نفيت عنه « علامة » انتفى عنه الباقى ؟ لا ، إذن فنفى الأكثر لا ينفى الأقل .

لكن إذا أثبت الأكثر ثبت الأقل ، وإذا نفيت الأكثر فلن ينتفى الأقل ، فإذا قلت : الله ليس بظلام للعبيد ، نفيت الأكثر . صحيح أنّه غير مبالغ فى الظلم ، فهل يمكن أن يكون ظالماً ؟ على حسب ما قلنا : إذا نفينا الأكثر لا ينتفى الأقل نقول : لا ، لأننا هنا يجب أن نأخذ القضية الأولى فى أن المبالغة فى الحدث والمبالغة فى الفعل تأتى مرة فى ذات الحدث ، ومرة فى تكرار الحدث ، والحق سبحانه لو أراد أن يظلم هذا ويظلم هذا ، فقد تكرر الحدث ؛ فيكون معاذ الله ـ ظلاّماً ، ولذلك لم يقل : بظلاّم للعبد ، بل قال : بظلاّم للعبيد .

إذن فهذا العبد يحتاج ظالماً ، والعبد الآخر يحتاج ظالماً ، وذاك يحتاج ظالماً ! فعندما يظلم كل هؤلاء يكون ظلاماً ، ولذلك نفاها سبحانه وقال : « وما ربك بظلام للعبيد » .

والحق هنا يقول : « قيوم » وهذه صفة مبالغة مَن قائم ، فالأصل فيها : القائم على أمر بيته ، والقائم على أمر رعيته ، والقائم على أمر المدرسة ، والقائم على أمر

هذه الإدارة ، ومعنى قائم على أمرها : أنه متولى شئونها ، فكأن القيام هو مظهر الإشراف . فنحن لا نقول : « قاعد على إدارتها » . وعندما نقول « قيوم » فمعناها أنه أوسع فى القيام . كيف جاء هذا الاتساع ؟ . لأن القائم قد يكون قائماً بغيره ، لكن حين يكون قائما بذاته ، وغيره يستمد قيامه منه ، فهو قائم على كل نفس وهو سبحانه القائل :

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة الرعد)

إن المشركين قد بلغوا السفه فى جحودهم فجعلوا لله شركاء فى العبادة ، فهل يستطيع أحد أن يبلغ تلك المرتبة العالية ، مرتبة خلق العالم والقيام على كل أمر فيه ، صغر أو كبر ؟ . إنه الحافظ المراقب لكل نفس ، العالم بكل ما خفى وظهر ، وهذه الأوثان لا تضر ولا تنفع ، فكيف تتوهمون يا من أشركتم بالله له نداً ، إن الحق مُنزه عن ذلك بقيامه على كل نفس وكل الخلق . لكن أهل الضلال أغواهم ضلالهم فلم يعد لهم هاد بعد الله .

إن الحق سبحانه قائم بذاته ، وقائم على غيره . والغير إن كان قائما إنما يستمد منه القيام . فلابد أن يكون « قيوماً » ، ومن قيومته أنه « لا تأخذه سنة ولا نوم » ، وقيل فى كتب العلم : إن قوم بنى إسرائيل سألوا موسى عليه السلام : أينام ربنا ؟ .

فأوحى الله إليه : أن ائت بزجاجتين وضعهما فى يد إنسان ، ودعه إلى أن ينام ، ثم انظر الجواب . فلما وضع فى يده الزجاجتين ونام . انكسرت الزجاجتان فقال : هو كذلك ، هو قائم على أمر السماء والأرض ، ولو كانت تأخذه سنة أو نوم لتحطمت الدنيا .

وهو سبحانه « لا تأخذه سنة ولا نوم » . و« السنة » هى أول ما يأتى من

النعاس ؛ أى النوم الخفيف، فالواحد منا يكون جالساً ثم يغفو، لكن النوم هو « السُبات العميق » ، فلما قال : « لا تأخذه سنة » قالوا : إنه يتغلب على النوم الخفيف لكن ؛ هل يقدر على مقاومة النوم العميق ؟. فقال الحق عن نفسه : « لا تأخذه سنة ولا نوم » . وعرفنا أن السنة هى : النعاس الذى يأتى فى أول النوم ، ومظهرها يبدو أولاً فى العين وفى الجفن ، فعندما يذهب إنسان فى النوم ؛ فإن أثر ذلك يظهر فى عينيه ، ولذلك يقولون : إن العين هى الجارحة التى يمكن أن تعرف بها أحوال الإنسان ، وقد اكتشفوا فى عصرنا الحديث أن الشرايين لا يمكن أن يعرفوا حالتها بالضبط إلا من العين . فالفتور الذى يأتى فى العين أولاً هو السنة أو مقدمات النوم ونسميه : النعاس .

«لا تأخذه سنة ولا نوم » أتريدون تطميناً من إله لمألوه ، ومن معبود لعابد ، ومن خالق لمخلوق أكثر من أنه يقول للعابد المخلوق : « نم أنت ملء جفونك ، واسترح ؛ لأن ربك لا ينام » . ماذا تريد أكثر من هذا ؟ هو سبحانه يعلم أنه خلقك ، وأنك تحتاج إلى النوم ، وأثناء نومك فهناك أجهزة فى جسمك تعمل . أإذا نمت وقف قلبك ؟ أإذا نمت انقطع نَفَسك ؟ أإذا نمت وقفت معدتك من حركتها الدودية التى تهضم ؟ أإذا نمت توقفت أمعاؤك عن امتصاص المادة الغذائية ؟ لا ، بل كل شيء فى دولابك يقوم بعمله . فمن الذى يُشرف على هذه العمليات لو كان ربك نائماً ؟

إذن فأنت تنام وهو لا ينام . وبالله هل هذه عبودية تُذلّنا أو تُعزنا ؟ إنها عبودية تُعزنا ؛ فالذى نعبده يقول : ناموا أنتم ؛ لأننى لا تأخذنى سنة ولا نوم . وإياك أن تفهم أنه لا تأخذه سنة ولا نوم ، وأن شيئاً فى كونه يخرج عن مراده ، لا ؛ لأن كل ما فى السموات والأرض له ، فلا شيء ولا أحد يخرج عن قدرته . ولذلك يقول الحق : « له ما فى السموات وما فى الأرض » .

ويتابع سبحانه بقوله : « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه » إنّه سبحانه وتعالى يوضح : أنا أعطيتك الراحة فى الدنيا ، وحتى الكافر جعلته يتنعم بنعمى ؛ ولم أجعل الأسباب تضن عليه ، وأعطيته مادام قد اجتهد فى تلك الأسباب مما يدل على أننى ليس عندى محاباة ، قلت للأسباب : يا أسباب من يُحسنك يأخذك ولو كان

كافرا بي . لكنه سيأتي يوم القيامة وليس للكافر إلا العذاب ، لأنه مادام قد عمل في الدنيا وأحسن عملا فقد أخذ جزاءه ، فإياكم أن تظنوا كما قالوا : « هؤلاء شفعاؤنا عند الله »، وجاء فيهم قول الحق :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة يونس)

إن هؤلاء الذين افتروا على الله بالشرك به ، واتخذوا أصناما باطلة لا تضرهم ولا تنفعهم . يقولون عن هذه الأصنام : إنها تشفع لهم عند الله في الآخرة ، ويأمر الحق سبحانه رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم أن يبلغ المشركين : قل لهم يا محمد : هل تخبرون الله بشريك لا يعلم الله له وجودا في السموات ولا في الأرض ، وهو الخالق لكل ما في السموات والأرض ومُنزه سبحانه عن أن يكون له شريك في المُلك .

لقد أرادوا أن يخلوا بقضية التوحيد ويجعلوا لله شركاء ويقولوا : إن هؤلاء الشركاء هم الذين سيشفعون لنا عند الله . فيقول الحق سبحانه : إن الشفاعة لا يمكن أن تكون عندى إلا لمن أذنت له أن يشفع . إن الشفاعة ليست حقا لأحد . ولكنها عطاء من الله ، لذلك يقول : « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه » .

ويقول الحق : « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم » . ساعة يتعرض العلماء إلى : « مابين أيديهم وما خلفهم » يشرحون لنا أن ما بين اليدين أى ما أمامك ، وما خلفك أى ما وراءك ، وما بين يدى الإنسان يكون : مواجها لآلة الإدراك الرائدة وهى العين ، فهو أمر يُشهد .

والذى في الخلف يكون غيبا لا يراه ، كأن ما بين اليد يراد به المشهود والذى في الخلف يراد به الغيب ، فهو « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم » أى يعلم مشهدهم

وغيبهم ، ويطلق « ما بين اليد » إطلاقا آخر . إننا قد نسأل عمّا بين يديك . هل هو مواجه لك أو غير مواجه ؟ فلو كان أمامك بشر ، فهل هم قادمون إليك أو راحلون عنك ؟

إنهم إن كانوا راحلين عنك فقد سبقوك وقد جئت أنت من بعدهم ، ومن وراءك سيأتي من بعدك . أى أن الحق سبحانه يخبرنا أنه يعلم الماضى والمستقبل . فمرة يعلم الحق ما بين أيديهم ، أى العالم المشهود ويسمونه « عالم الملك » ، وما خلفهم أى الغيب ، ويسمونه « عالم الملكوت » . إنه يعلم المشهود لهم والخفى عنهم . وكما يقول الحق :

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

إن عند الله علم جميع الغيب ويحيط علمه بكل شيء ، ولا تخفى عليه خافية . إنها إحاطة من كل ناحية . « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء » . إنه الحق يعلم مطلق العلم . وكون الحق يعلم فإن ذلك لا ينفى أن يكون غيره يعلم أيضا ، لكن علم البشر هو بعض علم موهوب من الخالق لعباده .

فعندما يقول واحد : أنا أقول الشعر . فهل منع ذلك القول أحداً آخر من أن يقول الشعر ؟ لا . إنه لم يقل : ما يقول الشعر إلا أنا .

ويقول سبحانه : « ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء » ، و« العلم » هو الصفة التى تعلم الأشياء على وفق ما هى عليه ، هذا هو العلم . وصفة الله وعلمه أعظم من أن يحاط بها ، لأنها لو أحيطت لحددت ، وكمالات الله لا تحدد ، مثلما ترى شيئا يعجبك فتقول : هذه قدرة الله ، هل هى قدرة الله أو مقدور الله ؟ إنها مقدور الله أى أثر القدرة ، فعندما يقول : « ولا يحيطون بشيء من علمه » أى من معلومه .

« ويحيطون » هى دقة فى الأداء ، لأنك قد تدرك معلوما من جهة وتجهله من جهات ، فأوضح سبحانه : أنك لا تقدر أن تحيط بعلم الله أو قدرته ؛ لأن معنى الإحاطة أنك تعرف كل شىء ، مثل المحيط على الدائرة ، لكن ذلك لا يمنع أن نعلم جزئية ما ، ونحن نعلم بما آتانا الله من قوانين الاستنباط ، فهناك مقدمات نستنبط منها نتائج ، مثل الطالب الذى يحل مسألة جبر ، أو تمرين هندسة ، أيعلم هذا الطالب غيبا ؟ لا ، ولكنه يأخذ مقدمات موضوعة له ويصل إلى نتائج معروفة سلفا لأستاذه . وأنت لا تحيط بعلم إلا بما شاء لك الله أن تحيط ، « لا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء » .

وقول الله : « إلا بما شاء » هو إذن منه سبحانه بأنه سيتفضل على خلقه بأن يشاء لهم أن يعلموا شيئا من معلومه ، وكان هذا المعلوم خفيا عنهم ومستورا فى أسرار الكون ، ثم يأذن الله للسر أن ينكشف ، وكل شىء اكتشفه العقل البشرى ، كان مطمورا فى علم الغيب وكان سرا من أسرار الله ، وبعد ذلك أذن الله للسر أن ينكشف فعرفناه ، بمشيئته سبحانه . فكل سر فى الكون له ميلاد كالإنسان تماما ، أى أن له ميعادا يظهر فيه ، وهذا الميعاد يسمى مولد السر . لقد كان هذا السر موجودا وكان العالم يستفيد منه وإن لم يعلمه . لقد كنا نحن نستفيد ـ على سبيل المثال ـ من قانون الجاذبية ولم نكن نعلم قانون الجاذبية ، وكذلك النسبية كنا نستفيد منها ولم نكن نعلمها ، وهذا ما يبينه لنا الحق فى موضع آخر من القرآن الكريم ، قال تعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾

(سورة فصلت)

مادام قال سبحانه : « سنريهم » ، فهذا يعنى أنه سبحانه سيولد لنا أسراراً جديدة ، وهذا الميلاد ليس إيجادًا وإنما هو إظهار ، ولذلك يقول الناس عن الأسرار العلمية:إنها اكتشافات جديدة ، لقد تأدبوا فى القول مع أن كثيرا منهم غير متدينين ، قالوا : اكتشفنا كذا ، كأن ما اكتشفوه كان موجودا وهم لا يقصدون هذا الأدب . إنما هى جاءت كذلك ، أما المؤمنون فيقولون : لقد أذن الله لذلك السر أن يولد .

وقوله : « لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء » فيه تحد واضح . فحتى إذا اجتمع البشر مع بعضهم البعض فلن يحيطوا بشيء إلا بإذنه . وهذا تحدٍ للكل ، حين يشاء سبحانه أن يوجد إظهار سر فى الوجود ، فهذا السر يولد ، وقد يكون إظهار السر موافقا لبحث الناس مثل العالم الذى يجلس فى معمله ليجرب فى العناصر والتفاعلات ، ويهتدى لهذه وهذه ، إنه يتعب كثيرا كى يعرف بعضا من الأسرار ، ونحن لا ندرى بتعبه وجهده إلا يوم أن يكتشف سره .

لقد أخذ المقدمات التى وضعها الله فى الكون حتى إذا تتبعناها نصل إلى سره ، مثلما نريد أن نصل إلى الولد فنتزوج حتى يأتى ، وقد يأذن الله مرارا كثيرة أن يولد السر بدون أن يشتغل الخلق بمقدماته ، لكن ميعاد ميلاد السر قد جاء ولم ينشغل العلماء بمقدماته ؛ فيخرجه الله لأى مخترع كنتيجة لخطأ فى تجربة ما .

وعندما نبحث فى تاريخ معظم الاكتشافات نجدها كذلك ، لقد جاءت مصادفة ، فهناك عالم يبحث فى مجال ما ، فتخرج له حقيقة أخرى كانت مخفية عنا جميعا . لقد جاء ميعاد ميلادها على غير بحث من الخلق ، فجاء الله بها فى طريق آخر لغيرها ، وفى بعض الأحيان يوفق الله عالما يبحث المقدمات ويكشف له السر الذى يبحث عنه .

إذن ، فـ « لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء » تعنى أن الإنسان قد يصادف السر بالبحث ، ومرة يأتى سر آخر فى مجال البحث عن غيره ، فالله لا يضن بكشف السر حتى لو لم يشتغلوا به ونسميها نحن ـ مصادفة ـ إن كل شيء يجرى فى الكون إنما يجرى بمقدار ، وهذا هو الذى يفرق لنا بين معرفة غيب كان موجودا وله مقدمات فى كون الله نستطيع أن نصل إليه بها ، وشيء مستور عند الله ليست له مقدمات ؛ إن شاء سبحانه أعطاه من عنده تفضلا ؛ من باب فضل الجود لا بذل المجهود وهو سبحانه يفيضه فى « المصادفة » هنا ويفيضه فيما لا مقدمات له على بعض أصفيائه من خلقه ، ليعلم الناس جميعا أن لله فيوضات على بعض عبيده الذين والاهُمُ الله بمحبته وإشراقاته وتجليه .

لكن هل هذا يعنى أن باستطاعتنا أن نعرف كل الغيب ؟ لا ، فالغيب قسمان :

غيب جعل الله له فى كونه مقدمات ، إن استعملناها نصل إليه ، ككثير من الاكتشافات ، وإذا شاء الله أن يولد سر ما ولم نبحث عنه فهو يعطيه لنا « مصادفة » من باب فيض الجود لا بذل المجهود . ونوع آخر من الغيب ليست له مقدمات ، وهذا ما استأثر الله بعلمه إلا أنه قد يفيض به على بعض خلقه كما يقول سبحانه :

﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الجن)

إن الله هو عالم الغيب فلا يُطلع أحدا من خلقه على غيبه إلا من ارتضاه واصطفاه من البشر ، لذلك فلا أحد يستطيع أن يتعلم هذا اللون من الغيب . ولذلك فلا يوجد من يفتح دكانا لعلم الغيب يذهب إليه الإنسان ليسأله عن الغيب . إن الحق يقول :

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وهو سبحانه لا يعطى المفتاح لأحد من خلقه . وقد يريد الله أن يعطى لواحد كرامة ، فأعطاه كلمة على لسانه قد يكون هو غير مدركٍ لها ! فيقول : من يسمع هذا القول وينتفع به . فلان قال لى : كذا وكذا . . يا سلام ! وهذا فيض من الله على عبده حتى يبين الله لنا أنه يوالى هؤلاء العباد الصالحين .

وقوله الحق : « ولا يحيطون بشىء » نجد أن كلمة « شىء » تعنى أقل القليل . وقوله سبحانه : « من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض » يعلمنا أن الحق فيما يتكلم به عن نفسه ولخلقه فيه نظائر ، كالوجود ، هو سبحانه موجود وأنت موجود ، وكالغنى هو غنى وأنت غنى ، كالعلم هو عالم وأنت تكون عالماً ، فهل

نقول : إن الصفة لله كالصفة عندنا ؟ لا ، كذلك كل ما يرد بالنسبة للغيب فيما يتعلق بالله إضافة أو وصفاً ؛ لا تأخذها بالمناسب عندك ؛ بل خذها فى إطار « ليس كمثله شيء » .

فإذا قيل لله يد ، قل : هو له يد كما أن له وجودا ؛ وبما أن وجوده ليس كوجودى فيده ليست كيدى بل افهمها فى إطار « ليس كمثله شيء » ، فإذا قال : « وسع كرسيه » نقول : هو قال هذا ، ومادام قال هذا فسنأخذ هذه الكلمة فى إطار « ليس كمثله شيء » . فلا تقل له كرسى وسيقعد عليه مثلنا ، لا . لقد وجدنا من قال : أين يوجد الله ؟!! متى وجد ؟!! وقلنا ونقول : « متى » و« أين » لا تأتى بالنسبة لله ، إنها تأتى بالنسبة لكم أنتم ، لماذا ؟ لأن « متى » زمان و« أين » مكان . والزمان والمكان ظرفان للحدث ، فالشيء الحادث هو الذى له زمان ومكان ، مثال ذلك أن أقول : « أنا شربت » ومادام قد حدث الشرب فيكون له زمان ومكان ، لكن هب أننى لم أشرب ، أيكون هناك زمان أو مكان ؟! لا ، فمادام الله ليس حدثاً فليس متعلقاً به زمان أو مكان ، لأن الزمان والمكان نشآ عندما خلق الله وأحدث هذا الكون ، فلا تقل : « متى » لأن « متى » خُلِقت به ، ولا تقل « أين » لأن أين خُلِقت به ولأن « متى » و« أين » ظرفان ؛ هذه للزمان ، وهذه للمكان . والزمان والمكان فرعا الحدث . وعندما يوجد حدث فقل زمان ومكان .

إذن فمادام الله ليس حدثاً ، فإياك أن تقول فيه متى ، وإياك أن تقول فيه أين ، لأن « متى » و« أين » وليدة الحدث . وقوله الحق : « وسع كرسيه » نأخذه ـ كما قلنا ـ فى إطار « ليس كمثله شيء » ، الكرسى : فى اللغة من الكِرْس . والكِرْسُ هو : التجميع ، ومنه الكراسة وهى عدة أوارق مجمعة ، وكلمة « كرسى » استعملت فى اللغة بمعنى الأساس الذى يُبنى عليه الشيء ، فمادة « الكرسى »(الكاف والراء والسين) تدل على التجميع وتدل على الأساس الذى تثبت عليه الأشياء ؛ فنقول : اصنع لهذا الجدار كرسياً ، أى ضع لهذا الجدار أساساً يقوم عليه . وتطلق أيضاً على القوم العلماء الذين يقوم بهم الأمر فيما يشكل من الأحداث ، والشاعر العربى قال : « كراسى فى الأحداث حين تنوب » أى يُعتمد عليهم فى الأمور الجسيمة .

وحين يُنسب شيء من ذلك للحق سبحانه وتعالى . فإن السلف لهم فيها كلام

والخلف لهم فيها كلام ، والسلف يقولون : كما قال الله نأخذها ولكن نضع كيفيتها وتصورها فى إطار « ليس كمثله شيء » ، وبعضهم قال : نؤولها بما يُثبت لها صفة من الصفات ، كما يثبتون قدرة الحق بقوله الحكيم .

﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾

(من الآية ١٠ سورة الفتح)

أى أن قدرة الله فوق قدرتهم ، وكما قال سبحانه عن قدرته فى الخلق :

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

إن كمال قدرة الله أحكمت خلق السماء ، والحق سبحانه مقدس ومُنَزَّهٌ عن أن يتصور المخلوق كلمة « يد » بالنسبة لله . ونحن نقول : الله قال ذلك ، ونأخذها من الله ؛ لأنه أعلم بذاته وبنفسه ، ونحيلها إلى ألاّ يكون له شبيه أو نظير ، كما أثبتنا لله كثيراً من الصفات ، فى خلق الله مثلها ومع ذلك نقول : علمه لا كعلمنا ، وبصره لا كبصرنا ، فلماذا يكون كرسيه مثل كرسينا ؟. فتكون فى إطار « ليس كمثله شيء » .

والعلماء قالوا عن الكرسى : إنه ما يُعتمد عليه ، فهل المقصود علمه ؟. نعم . وهل المقصود سلطانه وقدرته ؟. نعم ، لأن كلمة « كرسى » توحى بالجلوس فوقه ، والإنسان لا يجلسُ عن قيام إلا إذا استتب له الأمر ، ولذلك يسمونه « كرسى المُلْكِ » ؛ لأن الأمر الذى يحتاج إلى قيام وحركة لا يجعلك تجلس على الكرسى ، فعندما تقعد على الكرسى ، فمعنى ذلك أن الأمر قد استتب ، إذن فهو بالنسبة لله السلطان ، والقهر ، والغلبة ، والقدرة .

أو نقول : مادام قال : « وسع كرسيه السموات والأرض » فوسع الشيء أى : دخل فى وسعه واحتماله . « والسموات والأرض » نحن نفهمها أنها كائنات كبيرة بالنسبة لنا ، إنه سبحانه يقول :

﴿ لَخَلْقُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

(سورة غافر)

وعندما يقول : إن الكرسى وسع السموات والأرض ، إذن ، فهو أعظم من السموات والأرض أى دخل فى وسعه السموات والأرض . ولذلك يقول أبو ذر الغفارى رضى الله عنه :

(سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن الكرسى فقال : يا أبا ذر ما السماوات السبع والأرضون السبع عند الكرسى إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة . وإن فضل العرش على الكرسى كفضل الفلاة على تلك الحلقة)[١] .

والبشرية بكل ما وصلت له من إنجازات علمية قد وصلت إلى القمر فقط وهو مجرد ضاحية من ضواحى الأرض ، ومفصول عنا بمسافة تقاس بالثوانى الضوئية ، ولقد تعودنا فى حياتنا أن نستخدم وحدات الميل والكيلومتر لقياس الأطوال والأبعاد الكبيرة ، لكننا اكتشفنا أن هذه الوحدات ليست ذات نفع فى قياس أبعاد النجوم ؛ لأننا نعرف مثلاً أن الشمس تبعد عن الأرض ثلاثة وتسعين مليونا من الأميال ، ولكن عندما نريد أن نرصد المسافة بيننا وبين أحد النجوم فلسوف نضطر إلى استخدام أعداد كثيرة من الأصفار أمام رقم ما ، وهذا يجعل التعبير غير عملى ، ولهذا السبب وضع علماء الفلك وحدة ملائمة لقياس أبعاد النجوم وهى ما نسميه السنة الضوئية . ونحن نعرف أن سرعة الضوء حوالى ثلاثمائة ألف كيلومتر فى الثانية . ولذلك فقياس أى مسافة بيننا وبين أى نجم فى السماء أمر يحتاج إلى حسابات دقيقة وكثيرة ودراسة علوم متعددة .

فالشمس بيننا وبينها ثلاثة وتسعون مليونًا من الأميال ويصلنا ضوؤها فى خلال ثمانى دقائق وثلث الدقيقة . والشعرى اليمانية وهى ألمع نجوم السماء يصل إلينا ضوؤها فى تسع سنوات ضوئية .

---

(١) حديث شريف أخرجه ابن جرير وابو الشيخ فى العظمة .

إذن فالسنة الضوئية هى وحدة لقياس المسافات الفلكية . ونحن نذهل عندما نعرف أن بعض النجوم يصل ضوؤها إلينا فى خمسين سنة ضوئية !! كل ذلك ونحن لم نصل بعد إلى السماء الدنيا ، فما بالنا ببقية السموات ؟ إذن فحدود ملك الله فوق تصورنا . ولنا أن نعرف أى تكريم من الحق للمؤمنين حين يصور لنا ضخامة الجنة يقول سبحانه :

﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الحديد)

هذه هى الجنة التى أعدها الله للمؤمنين بالله ورسله الذين يسارعون إلى طلب غفران الله . فإذا كان عرض الجنة هو السموات والأرض ، فما طولها إذن ؟ وكم يكون بعدها ؟ والعرض كما نعرف هو أقل البعدين .

إذن يجب أن نفهم أن هناك عوالم أخرى غير السماء والأرض ، لكن عيوننا لا تبصر فقط إلا ماأراده الحق لنا من السماء والأرض ، ولذلك فعندما نسمع قول الحق : « وسع كرسيه السموات والأرض » فلنا أن نتخيل أى عظمة هى عظمة كرسى ذى الجلال والإكرام .

إن الحق يقول : « وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما » ، ومعنى آده الشىء ، أى أثقله . وحتى نفهم ذلك هب أن إنسانا يستطيع أن يحمل عشرة كيلوجرامات ، فإن زدنا هذا الحمل إلى عشرين من الكيلوجرامات فإن الحمل يثقل عليه ، ويجعل عموده الفقرى معوجا حتى يستطيع أن يقاوم الثقل . فإن زدنا الحمل أكثر فقد يقع الرجل على الأرض من فرط زيادة الوزن الثقيل .

إذن فمعنى « ولا يؤوده حفظهما » أى أنه لا يثقل على الله حفظ السموات والأرض .

إن السماء والأرض وهما فوق اتساع رؤية البشر ؛ قد وسعهما الكرسى الربانى . وقال بعض المفسرين : إذا كان الكرسى لا يثقل عليه حفظ السموات والأرض فما بالنا بصاحب الكرسى !!؟

ها هو ذا الحق سبحانه وتعالى يطمئننا فيقول :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾

(سورة فاطر)

إنه الحق وحده سبحانه وتعالى الذى يحفظ السموات والأرض فى توازن عجيب ومذهل ، ولئن قُدّر لهما أن تزولا . فلن يحفظهما أحد بعد الله ، أى لا يستطيع أحد إمساكهما ؛ فهما قائمتان بقدرة الواحد القهار ، وإذا أراد الله أن تزولا فلا يستطيع أحدٌ أن يمسكهما ويمنعهما من الزوال .

وإذا كانت هذه الأشياء الضخمة من صنع الله وهو فوقها ، فإنه عندما يصف نفسه بأنه « علىّ » و« عظيم » فذلك أمر طبيعى . إن الحق سبحانه وتعالى يعطينا تذييلاً منطقياً يقتضيه ما تقدمت به الآية الجليلة : آية الكرسى ، إنه الحق يقول : « وهو العلىّ العظيم » وكلمة « علىّ » صيغة مبالغة فى العلو . و« العلىّ » هو الذى لا يوجد ما هو أعلى منه فكل شىء دونه .

هذه الآية الكريمة التى نحن بصددها نعرفها بآية الكرسى ؛ لأن كلمة « الكرسى » هى الظاهرة فيها . وكلمة « الكرسى » فيها : تعنى السلطان والقهر والقدرة والملكية وكلها مأخوذة من صفات الحق جل وعلا .

إنه لا إله إلا هو . إنه الحى . إنه القيوم . إنه الذى لا تأخذه سنة ولا نوم .

والشفاعة عنده مأذون فيها بإرادته هو وحده وليس بإرادة سواه . وهو العليم بكل

شيء ، الذى يسع كرسيه السموات والأرض وهو العلىّ فلا أعلى منه ، وهو العظيم بمطلق العظمة . وتتجمع كل هذه الصفات لتضع أمامنا أصول التصور فى العقيدة الإيمانية ، وقد وردت فيها أحاديث كثيرة ، ومنها نستخلص أنها آية لها قدرها ومقدارها عند الله . فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال :

« وكلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان فأتانى آت فجعل يحثو الطعام فأخذته وقلت:والله لأرفعنّك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : إنى محتاج ، وعلىّ عيال ، ولى حاجة شديدة . قال:فخليت عنه ، فأصبحت فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم ـ يا أبا هريرة : « ما فعل أسيرك البارحة » ؟ قال : قلت يا رسول الله : شكا حاجة شديدة وعيالا ، فرحمته ، فخليت سبيله ، قال : « أمّا إنه كذبك وسيعود » فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ إنه سيعود ، فرصدته فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت : لأرفعنّك إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال:دعنى فإنى محتاج ، وعلىّ عيال لا أعود ، فرحمته وخليت سبيله ، فأصبحت فقال لى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : يا أبا هريرة:« ما فعل أسيرك »؟ فقلت يا رسول الله : شكا حاجة شديدة وعيالا فرحمته فخليت سبيله قال : « أما إنه قد كذبك وسيعود » فرصدته الثالثة ، فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت لأرفعنّك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وهذا اخر ثلاث مرات أنك تزعم لا تعود ، قال : دعنى أعلمْك كلمات ينفعْك الله بها قلت : ما هى ؟

قال : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى « الله لا إله إلا هو الحىّ القيوم » حتى تختم الآية ؛ فإنه لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربنّك شيطان حتى تصبح ، فخليت سبيله ، فأصبحت فقال لى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ما فعل أسيرك البارحة » ؟ قلت يا رسول الله : زعم أنه يعلمنى كلمات ينفعنى الله بها فخليت سبيله قال : « ماهى » قلت : قال لى : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى من أولها حتى تختم « الله لا إله إلا هو الحى القيوم » ، وقال لى : لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، وكانوا (أى الصحابة) أحرص شىء على تعلم الخير ، فقال النبىّ ـ صلى الله عليه وسلم : « أما أنه قد

صدقك وهو كذوب ، تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة ؟ قال : لا ، قال صلى الله عليه وسلم : « ذاك الشيطان »[١] .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سورة البقرة فيها آية سيدة آى القرآن لا تقرأ فى بيت فيه شيطان إلا خرج منه ـ آية الكرسى »[٢] .

وعن أبي أمامه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ دُبُرَ كل صلاة آية الكرسى لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت »[٣] .

وعن عليّ ـ كرم الله وجهه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ قال : « من قرأها ـ يعنى آية الكرسى ـ حين يأخذ مضجعه آمنه الله تعالى على داره ، ودار جاره ، وأهل دويرات حوله »[٤] .

كل هذه المعانى قد وردت فى أفضال هذه الآية الكريمة ، وقد جلس العلماء يبحثون عن سر هذه المسألة فقال واحد منهم : انظروا إلى أسماء الله الموجودة فيها .

وبالفعل قام أحد العلماء بحصر أسماء الله الحسنى فيها ، فوجد أن فيها ستة عشر اسماً من أسماء الله ، وبعضهم قال : إن بها سبعة عشر اسماً من أسماء الله الحسنى ، وبعضهم قال أن فيها واحدًا وعشرين اسماً من أسماء الله ، كل ذلك من أجل أن يستنبطوا منها أشياء ، ويعلموا فضل وفضائل هذه الآية الكريمة . والذين قالوا إن بها ستة عشر اسماً من أسماء الله قالوا :

إن بها اسم علم واجب الوجود « الله » .
واسم « هو » فى لا إله إلا هو:هو الاسم الثانى .

---

١ ـ من صحيح البخارى فى كتاب فضائل القرآن وكتاب الوكالة وفى صفة إبليس .
٢ ـ الحاكم ابو عبدالله فى مستدركه .
٣ ـ النسائى فى اليوم والليلة وابن حبان فى صحيحه .
٤ ـ البيهقى فى شعب الإيمان .

و« الحيّ » هو الاسم الثالث .
و« القيوم » هو الاسم الرابع .
وعندما ندقق فى قول الحق « لا تأخذه سنة ولا نوم » نجد أن الضمير فى « لا تأخذه » عائد إلى ذاته ـ جل شأنه ـ .
و« له ما فى السموات وما فى الأرض » فيها ضمير عائد إلى ذاته سبحانه .
وكذلك الضمائر فى قوله:« عنده » و« بإذنه » ، و« يعلم » و« من علمه » و« بما شاء » و« كرسيه » كلها تعود إلى ذاته جل شأنه .
و« لا يؤوده حفظهما » فيها ضمير عائد إلى ذاته كذلك .
و« هو » فى قوله سبحانه « وهو العلى العظيم » اسم من أسمائه تعالى .
و« العلىّ » اسم من أسمائه جل وعلا .
و« العظيم » كذلك اسم من أسمائه سبحانه وتعالى .

لكنّ عالماً آخر قال : إنها سبعة عشر اسماً من أسماء الله ؛ لأنك لم تحسب الضمير فى المصدر المشتق منه الفعل الموجود بقوله:« حفظهما » إن الضمير فى « هما » يعود إلى السموات والأرض . و« الحفظ » مصدر . فمن الذى يحفظ السموات والأرض ؟ إنه الله سبحانه وتعالى ، وهكذا أصبحوا سبعة عشر اسماً من أسماء الله الحسنى فى آية الكرسى .

وعالم ثالث قال : لا ، أنتم تجاهلتم أسماء أخرى ؛ لأن فى الآية الكريمة أسماء واضحة للحق جَل وعلا ، وهناك أسماء مشتقة ، مثال ذلك :
الله لا إله إلا هو . الحىّ هو . القيوم هو . العلىّ هو . العظيم هو .
ولكن العلماء قالوا ردا على ذلك : صحيح أنها أسماء مشتقة ولكنها صارت أعلاما .

المهم أن فى الآية الكريمة ستة عشر اسماً ، وإن حسبنا الضمير المستتر فى « حفظهما » نجد أنها سبعة عشر اسماً ، وإذا حسبنا الضمير الموجود فى المشتقات مثل « الحىّ هو » و« القيوم هو » ، و« العلىّ هو » و« العظيم هو » . صارت أسماء الله الحسنى الموجودة فى هذه الآية الكريمة واحدًا وعشرين اسماً . إذن هى آية قد جمعت قدراً كبيرا من أسماء الله ، ومن ذلك جاءت عظمتها .

وهذه الآية الكريمة قد بيّنت ووضحت قواعد التصور الإيمانى ، وأنشأت عقيدة متكاملة يعتز المؤمن أن تكون هذه العقيدة عقـيدته . والآية فى ذاتها تتضمن حيثيات الإيمان ، إنه ما دام هو الله لا إله إلا هو ، وما دام هو الحىّ القيوم على أمر السماء والأرض ، وكل شىء بيـده ، وهو العلىّ العظيم ، فكل هذه مبـررات لأن نؤمن به سبحـانه وتعالى ، وأن نعتز بأن نعـتقد هذه المعتـقدات ، وتكون هى الدليل على أن المؤمن فخور بهذا الدين الذى كان أمر الألوهية المطلقة واضحاً وبيّناً فيه .

ولذلك، فمن الطبـيعى ألا يقهر الحق أحداً على الإيـمان به إكراهاً ، لأن الذى يقهر أحداً على عـقيدة ما ، هو أول مَنْ يعتقد أنه لولا الإكـراه على هذه العقيدة لما اعتقدها أحـد . ونحن فى حياتنا اليومية نجد أن أصـحاب المبادىء الباطلة هم الذين يمسكون السياط من أجل إكراه الناس على السـير على مبادئهم . وكل من أصحاب هذه المبادىء الباطلة يعلم تمام العلم أنه لو ترك السوط والقهر ما سار إنسان على مثل هذه المبادىء الباطلة .

ولو كان أحد من أصـحاب هذه المبادىء الباطلة مـعتقداً أن مبـدأه سليم لقال : أطرح هذا المبدأ على الناس ، وأترك لهـم الخيار ؛ لأنه فى هذه الحالة سـيكون واثقاً من مبدئه . أما الذى يقهر الناس إكراهاً بالسوط أو السلطان ليـعتقدوا مبدأ ما ، فهو أول مَنْ يشك فى هذا المبدأ ، وهو أول مَنْ يعتقد أنه مبدأ باطل . مثل هؤلاء نراهم عندما تضعف أيديهم عن استعمال السوط أو السلطان، فإن أمر مبدئهم ينهزم ويسقط بنيانه .

والحق سبحانه وتعالى بعد ذلك يقول :

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾